

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ت/فن الرسائل أو الكتابة الديوانية

الرسائل الديوانية: الرسائل فن أدبي قديم ازدهر وانتشر في القرنين الثالث والرابع الهجريين وهو فن نثري جميل يظهر مقدرة الكاتب وموهبته الكتابية وروعة أساليبه البيانية المنمقة القوية.

لم تكن الكتابة شائعة بين العرب في **الجاهلية**، ولهذا السبب لم يكن للرسائل دور في حياتهم الأدبية في ذلك العصر. وإنما ازدهر عندهم الشعر والخطابة والأمثال.

وعندما جاء **الإسلام** تغيرت الحال. فالرسول (صل الله عليه وسلم) ، كان يشجع المسلمين على تعلم القراءة والكتابة، وقد اتخذ كِتَابًا يكتبون له القرآن الكريم، ويكتبون رسائله التي كان يبعث بها إلى رؤساء القبائل، وزُعماء المناطق، وملوك الدول. لم يكن الشُّعر والخطابة قادرين على أداء الدور العملي الذي تؤديه الرسالة حين تنتقل ما يتصل بسياسة الدولة من مراسيم سياسية أو توجيهات أو تعليمات إدارية. ومن هذا التاريخ نafs الكاتب الشاعر والخطيب، وشجع الخلفاء الراشدون على تعلم الكتابة واتخذوا لهم كِتَابًا.

وأول رسالة ديوانية كتبت في تاريخ العربية هي في الإسلام عندما أصبح للعرب دولة لأول مرة ، وهي رسائل الرسول محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ) إلى ملوك الدول المجاورة له يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وكذلك رسائله إلى بعض قواده وولاته البعيدين عنه ، ولم يكن الرسول (عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام) يكتب بيده وإنما يُملي للكاتب ، ولكن الأسلوب للرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ) ، فهو اذن واضع الرسائل الديوانية وأسسها.

وتبدأ الرسالة بالبسملة أولاً ثم يقول الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ) مثلاً : من محمد رسول الله إلى خالد بن الوليد . أي يقدم فيها اسم المرسل ، ثم يأتي اسم المرسل إليه ،حتى لو كان أقل رتبة منه ، فعندما

يجيبه خالد يقول : من خالد الى الرسول . ثم يأتي التحميد وهو قصير (أحمد اليك الله)، ثم تأتي عبارة (أمّا بعد) وهي الفاصلة بين المقدمة والموضوع الأساس . فيقول : (أمّا بعد وصلني كتابك وفهمت ما فيه اقبل وليقبل معك وفدك) ، وتنتهي الرسالة بعبارة (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .

وكلّ ما يصدر عن الرسول (عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام) سنة متبعة، لذلك أصبحت الرسائل جميعاً تمرّ بهذه الخطوات ، فهي موجزة جداً وجافّة وخالية من العواطف الشخصية وخالية من الألقاب ، وذلك لأنها ليست رسالة اخوانية ، وإنما ديوانية مختصّة بالدولة .

وعندما قامت **الدولة الأموية** وأراد معاوية بن أبي سفيان أن يطور شؤون الدولة الإسلامية؛ أنشأ - ضمن ما أنشأ - ديوان الرسائل. وهذا الديوان يعنى بشؤون المكاتبات التي تصدر عن الخليفة إلى ولاته وأمرائه وقادة جنده وملوك الدول الأخرى. وقد كان الخليفة - في أول الأمر - هو الذي يُملي الرسائل على كاتبه، ثم بمرور الزمن أخذ الكاتب يستقل بكتابة الرسائل، ثم يعرضها على الخليفة. وكان أسلوب الرسائل آنذاك تغلب عليه البساطة والوضوح، ويخلو من التأنق والتصنع.

شهد فنّ الكتابة نقلة كبيرة في عهد هشام بن عبد الملك عندما تولى مولاه سالم رئاسة ديوان الرسائل في عهده، ثم في عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، الذي تولى أمر ديوانه عبد الحميد بن يحيى الكاتب. فقد عُرف **عبد الحميد** بالبراعة في فن الترسل حتى غدت مكاتباته مضرب المثل في الجودة والإتقان، حتى قيل: " بدئت الكتابة بعبد الحميد " . ومن رسائله المشهورة رسالته التي كتبها عن مروان إلى ابنه وولي عهده عبدالله حين وجهه إلى محاربة الضحاك بن قيس الشيباني الذي ثار في العراق، ورسالته التي وجهها إلى عمال مروان بن محمد بالأمصار يأمرهم بمحاربة لعبة الشطرنج، ورسالته التي وجهها إلى الكُتّاب وأصبحت دستوراً لمهنة الكتابة

يتحدث فيها إلى الكتاب(6):

"... أما بعد ، حفظكم الله ، يا أهل هذه الصنعة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم ، فإن الله - جل وعز - جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين - صلوات الله عليهم أجمعين - سوقاً ، وصرفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم ، فجعلكم - معشر الكتاب - في أشرفها صناعة ، أهل الأدب والمروءة والروية ، وذوي الأخطار والهمم وسعة الذرع في الأفضال والصلة .

بكم ينتظم الملك . ويستقيم للملوك : أمورهم ، وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم ، ويجتمع فيهم ، وتعمر بلادهم . يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه ، والوالي في القدر السني من ولايته ، لا يستغني عنكم منهم أحد ، ولا يوجد كاف إلا منكم .. فنافسوا - معشر الكتاب - في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ، وابدعوا بعلم كتاب الله - عز وجل - والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثقاف ألسنتكم ، وأجيدوا الخط ، فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهمكم . والكاتب بفضل رأيه ، وشرف صناعته ، ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يحاوره وينظره ، ويفهم عنه ويخاف سطوته - أولى بالرفق بصاحبه ومداراته وتقويم أوده ، من سائس البهيمة التي لا تحير جواباً ، ولا تعرف خطأ ولا صواباً ، إلا بقدر ما يصيرها إليه سائسها أو صاحبها الراكب لها ، فادقوا - يرحمكم الله - النظر ، واعملوا فيه الروية والفكر ؛ تأمنوا ممن صحبتموه - بإذن الله - النبوة والاستئصال والجفوة ، ويصيروا منكم إلى الموافقة ، وتصيروا منهم إلى المواساة والشفقة ، إن شاء الله تعالى " .

بدأت الرسالة بالدعاء ، فورد فيها بعد لفظة البعدية وهي (أما بعد) ، قوله: "حفظكم الله ، يا أهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم " . ومثل هذه الأدعية في الافتتاح أو في الاختتام ، وربما في ثنايا الفصول ، إنما هو رسم متبع ونهج معروف في فن الرسائل ، والبليغ من يحسن هذه الأدعية ويربط بينها وبين غرض رسالته .

ويأتي غرض الرسالة حيث خاطبت الكتاب - منذ البداية - فبينت لهم أن الله - تعالى - جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين والملوك والمكرمين أصنافاً ، وجعل " معشر الكتاب أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية " ، بهم تمشي أمور الدولة وتنفذ ، ولا يستغني الحاكم عنهم .

والملاحظ أن عبد الحميد تحدث عن الكتاب ، وكأنهم قد أصبحوا طائفة ، لها صناعتها ، ولها إمامها الذي يوجهها ، ويرسم لها الدستور الذي ينبغي أن تسير وفقه ، ويفصل لها القول فيما تتبعه ، وفيما تتجنبه ، لترقى بصناعتها .

وقد انتهى هذا الفصل من الرسالة بلفظ المشيئة ، وهو "إن شاء الله تعالى" وهو مما تختتم به الرسالة أو بعض أجزائها، وعلى ذلك كانت عادة القدماء .

وقد عني عبد الحميد في أسلوب الرسالة بانتخاب ألفاظه ودقة معانيه ، شأنه شأن كل بليغ يحرص على جودة الصياغة وحسن الأداء ، ولم يكن يحتفل بالسجع ويلتزمه ، ولكنه كان ممن يميلون إلى التوازن بين العبارات والألفاظ ، ويستعين بالترادف والتكرار والتقابل . وقد لجأ الكاتب إلى التصوير ومن ذلك أنه شبه صنيع الكاتب في سياسته وحسن تصريفه وإحكام حيلته بصنيع من يسوس الدابة الجموح المستعصية .

وهكذا توفر في رسالة عبد الحميد الكاتب نموذج الرسالة المتكامل ، من افتتاحية ومقدمة وعرض وخاتمة ، كل ذلك عبر أسلوب رصين متين ، يتم عن خيال واسع وثقافة لغوية جعلته يمسك بناصية اللغة ، ويطوعها كيفما شاء .

أمّا الأسباب لبساطة هذه الرسائل في العصر الاموي فهي:

كانت أمور الدولة بسيطة وناشئة فلا تحتاج الى التفصيل , كما كان الكلام بين العرب الفصحاء أنفسهم ، فكّلهم من قريش ويفهمون بعبارات موجزة , كان الايجاز عند العرب أعلى مراتب البلاغة , كان الكتّاب يكتبون نخوة من دون أجره ، فالرسالة الطويلة تكون شاقّة عليهم . كانوا يتعلّمون مبادئ القراءة والكتابة , كانت الكتابة بالرقاع لعدم توفر الورق >

واما في بلاد الاندلس إن الدارس للرسائل الديوانية خلال فترة الحكم الإسلامي بالاندلس سيجدها متنوعة الأساليب، متعددة المناهج لدرجة جعلتها تنافس قرينتها في المشرق من ناحية الشكل والمضمون، وقد حصرنا الفلقشندي على امتداد فترة الحكم الإسلامي في الأندلس، فوجدها يمكن أن نجملها. "سمات انفرادوا بها عن كتاب المشرق، والديار المصرية في قوله:" أن المخاطبة تقع للمكتوب إليه بميم الجمع مع الانفراد، كما تقع الكتابة عنه بميم الجمع مع الانفراد، ومنها أهم يلتزمون الدعاء بمعنى ومنها "...الكتابة، عند قولهم -كتبنا-، بأن يقال: كتبنا إليك كتب الله لكم كذا أنهم يترضون عن الخليفة القائمين بدعوته في كتبهم، ومنها أنهم يذكرون "اسم المكتوب إليه في أثناء الكتاب، وتختتم بالسلام غالبا

وإذا حاولنا تطبيق ما قاله الفلقشندي في مختلف الرسائل الديوانية لهذه الفترة ٩٢هـ/٨٩٧هـ، نجد بعد الدراسة أن هذه السمات لا تنطبق على مجمل الوثائق الديوانية المتوفرة لدينا، إذ أنه في أغلب الأحيان يستدعي الموقف المخاطبة بأسلوب مغاير.

ففي قوله أن المخاطبة تقع للمكتوب إليه بميم الجمع مع الانفراد، فهذا لا ينطبق على رسالة يوسف الفهري الموجهة إلى عبد الرحمن الداخل، فقد خاطبه بالمفرد، وليس بميم الجمع، مما جاء فيها: "أما بعد، فقد انتهى إلينا نزولك ساحل المنكب.. فإن كنت تريد المال وسعة الجنب فأنا أولى لك ممن لجأت إليه، وكنفك وأصل رحمك وأنزلك معي إن أردت وبحيث تريد فبعد انتهاء عصر الدولة الأموية، و ندخل في **عصر أمراء الطوائف:**

عصر التنافس السياسي الحاد بينهم و التنافس الأدبي الحاد بين الأدباء من كتّاب و شعراء، و يصبح السجع أشبه بقانون عام في جميع الرسائل الديوانية الصادرة عن هؤلاء الأمراء إذ التمسه جميع كتّابهم في كل ما يكتبونه عنهم، التمسه أحمد بن عباس كاتب زهير أمير المريّة على البحر المتوسط المقتول معه سنة ٤٢٩ وقوله إنهم يترضون عن الخليفة القائمين بدعوته في كتبهم، فهذه التسمية لا نكاد نلمسها إلا في كتب الموحدين الذين يترضون عن خليفتهم المهدي محمد بن تومرت فقط، أما في الرسائل الديوانية الأخرى فإننا نجد فيها إشارة إلى الخليفة ويكون ذلك بالثناء عليه، والدعاء له ومرة الاحتفاء باصطفائه على العباد، نستشهد بما جاء في رسالة الناصر الأموي "...واستعزم الله أمير المؤمنين ليلته، واستخاره عن رحمته في

النهوض إلى مدينة "ثانت مانكش" دار الكفرة، ومجمع النصرانية إلى أن استركن عدو الله وضافت الحيل عليهم ووثقوا بحصانته ليعلمهم أن كلمة الله في إظهار دينه ونصر أوليائه وإعزاز خلفائه في مشارق الأرض ومغاربها ولو كره الكافرون فكان الثناء على الخليفة الناصر على أن الله نصره، وأعز به دينه وعن أسلوب الكتابة يذكر القلقشندي في مقام آخر أن المتقدمين اعتمدوا أساليب ثلاث، أن تفتتح المكاتب بلفظ من فلان إلى فلانثانيا أن تفتتح بلفظ أما بعد ، كما تفتتح بلفظ كتابنا إليك من موضع كذا أما بالنسبة للمتأخرين، فتفتتح المكاتب باللقب اللائق وهو على ضرب "المقام، المقر، الإمارة، والملاحظ أن القلقشندي في حصره للخصائص الفنية للرسالة الديوانية لاسيما في العرض والبدء والختام، نجده لم يشر إلى البسمة و التصلية والعلامة السلطانية خاصة، والتي كان لها شأن في مناصب الدولة الإسلامية، وقد قال عنها أبو الوليد بن الأحمر: " هي شعار الدولة وصيغتها التي تدرج بها الأوامر السلطانية

وكثر ولاية المرابطين في الأندلس و كان كل منهم يتخذ كاتباً بليغاً و ممن كتب لتميم بن يوسف بن تاشفين والي غرناطة أبو الحسن علي بن الإمام تلميذ ابن باجة الفيلسوف، وكتب لسير بن أبي بكر والي إشبيلية عبد المجيد بن عبدون، و هو من كتاب المتوكل بن الأفتس.. الخ

و من الكتاب في دواوين بني الأحمر ابن الحكيم كاتب الحاكم الثاني في الأسرة محمد بن محمد بن نصر المعروف بالفقيه (٦٧١-٧٠١ هـ) و كتب ابن الحكيم أيضا لابنه محمد (٧٠١-٧٠٨ هـ) و من كتاب بني الأحمر النابهين في القرن الثامن الهجري ابن الجيَّاب (٤٠) و لسان الدين بن الخطيب الكاتب المشهور.

وعندما قامت **الدولة العباسية** أخذ خلفاؤها يولون كتابة الرسائل عناية أكثر من سابقهم، ولهذا السبب كثر الكُتَّاب، ونبغ كثير منهم في فن الترسل، وازداد التنافس بينهم. ولا غرابة في هذا، لأن العمل في ديوان الرسائل أصبح مصدر رزق لهم، وغدا التفوق في فن الترسل وسيلة للحصول على ولاية أحد الأقاليم، بل إنه غدا مؤهلاً للوصول إلى منصب الوزارة، والواضح أن الرسائل الديوانية في بدايتها خالية من المبالغات

والخيال والتنميق اللفظي غير أنه: «لما أفتن الكتاب في أساليبها، واستبقوا في تجويدها لعب الخيال دوره وازدانت بغيره من المحسنات، وصارت مجال فسيحا ألفانين البالغة، وتفصيح الكتاب، فأطنبوا حيث يجب البسيط 2) (والتفصيل وأجزوا إذا اقتضى ذلك المقام، وربما بلغوا بالإيجاز حدود التوقيع». ونستحضر في هذا المجال أسماء: يحيى بن خالد البرمكي، وابنه جعفر، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وأحمد بن يوسف الكاتب، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وعبد العزيز بن يوسف، وضياء الدين بن الأثير وغيرهم. وقد بلغ فنُّ كتابة الرسائل أوجَهُ في القرنين الثالث والرابع الهجريين، بحيث يمكن لنا أن نصف هذين القرنين بأنهما يمثلان الفترة الذهبية لهذا الفن.

تسمى الرسائل التي تصدر عن ديوان الرسائل الديوانية نسبة إليه. وموضوعات هذه الرسائل متنوعة، فهي تشمل: الرسائل التي تصدر مشتملة على تولية العهد، وتولية القضاة، والولاية، وما يتصل بأمر الرعية. كما أنها تشمل أيضا الرسائل التي تكتب عن الخليفة أو الملك أو الوزير إلى من هو مثله من أجل التهنة أو البشارة أو المعاتبة أو التعزية وما أشبه ذلك. وقد أمتازت كتابات الكتاب في العصر العباسي بالوضوح والجمال الفني، لأنهم يكتبون عن الخلفاء والوزراء والولاية والقواد.

أما في العصور المتأخرة بلغت الكتابة الديوانية في هذا العصر منزلة رفيعة، وارتفعت مكانة الكتاب لدى السلاطين والملوك والأمراء إلى مرتبة عالية لا تقل شأنًا عن مرتبة القضاة وأرباب السيوف.

وموضوعات الكتابة الديوانية كثيرة، منها العهود والتقاليد والمراسيم والمنشورات، وكذلك كتب الوعيد والانداز بالحروب، إلى جانب رسائل الصداقة والسلام وتبادل الود والتحيات والهدايا والتهاني. * ومن أهم الموضوعات التي تناولها هذا العصر -1: التهنة: يعرفها ابن منظور في لسانه: «أه تهنة أوهن ُ التهنة خالف التعزية. يقال: هنأه بالولاية هنيئا إذا قلت له ليهنئك، والعرب تقول: ليهنئك الفارس بجزم الهمزة، وليهنئك الفارس؛ قد كانت التهنة موضوع من موضوعات الرسالة العباسية. بل

كانت أكثر شيوعاً عند معظم الكتاب ف«التهنئة ضد التعزية، وهي على قسمين، خاصة تتعلق بالشخص نفسه من حصوله على منصب معين ونعمة وتولية وزمن شفاء أو زواج أو غير ذلك، وعامة تتعلق بإشتراك الآخرين في عيد وفتح وهزيمة عدو ونصر وغيرها... لهذا تعتمد التهاني المعاني السارة والمفرحة، والتهيؤ للمهناً فضال عن تجنب ذكر ما ينعص السمع ويكرد النفس بما يقع للمهناً من شيء، ويفصل أن تستفتح بما يدل على عرضها لحسن وقعها في النفوس. -ومنه فالتعزية بالمفهوم العام هي الصبر على فقدان شيء و خصوصاً في مجال الموت فقد « ترتبط المكاتبه بالتعزية بحدث الموت الذي هو مصير كل حي، ومجال التعزية واسع، لما يتضمنه من التوصية بالصبر على المصيبة، وتسليم الأمور هلل في قضائه وقدره، والترويح عن أهل الميت عما أصابهم، وتعليق الأمر باهلل في التعويض عن الأمر العارض بالجزاء يوم الحساب - «. كما نجد صاحب "مواد البيان" يقول: المكاتبه في التعزية بالأحداث العارضة في هذه الدنيا واسعة المجال، لما تتضمنه من الإرشاد إلى الصبر والتسليم إلى هللا جلت قدرته وتسليم المعزى عما يسلبه بمشاركة السابقين فيه، ووعده بحسن العوض في الجزاء عنه إلى غير ذلك. مما ينتظم في هذا المعنى، قال: والكاتب إذا كان جيد الغريزة حسن التأتى فيها، بلغ المراد، ثم قال: وحكمها حكم(التهاني من الرئيس إلى المرءوس، ومن المرءوس إلى الرئيس، ومن النظر إلى النظر -ومنه فالتعزية بالمفهوم العام هي الصبر على فقدان شيء و خصوصاً في مجال الموت فقد « ترتبط المكاتبه بالتعزية بحدث الموت الذي هو مصير كل حي، ومجال التعزية واسع، لما يتضمنه من التوصية بالصبر على المصيبة، الأمور هلل في قضائه وقدره، والترويح عن أهل (الميت عما أصابهم، وتعليق الأمر باهلل في التعويض عن الأمر العارض بالجزاء يوم الحساب - «. كما نجد صاحب "مواد البيان" يقول: « المكاتبه في التعزية بالأحداث العارضة في هذه الدنيا واسعة المجال، لما تتضمنه من الإرشاد إلى الصبر والتسليم إلى هللا جلت قدرته وتسليم المعزى عما يسلبه بمشاركة السابقين فيه، ووعده بحسن العوض في الجزاء عنه إلى غير ذلك. مما ينتظم في هذا المعنى، قال: والكاتب إذا كان جيد الغريزة حسن التأتى فيها، بلغ المراد، ثم قال:

وحكمها حكم (2)التهاني من الرئيس إلى المرءوس،ومن المرءوس إلى الرئيس، ومن النظر إلى النظر . وقد كثرة الشكوى في هذا العصر - ومن هذا نفهم أن الحياة في العصر العباسي تغلب عليها نوائب الدهر، فكانوا يشكون مما يعانون في حياتهم - .ويقول في هذا الموضوع صاحب "مواد البيان":« رقاع الشكوى- عصمنا هلا من موجباتها -يجب أن تكون مبنية من صفة الحال المشكية ،على ما يوجب المشاركة فيها ويقضي بالمساعدة إن استدعيت عليها، من غير إغراق يفضي إلى تظلم الأقدار ، وشكوى المبتلي بالخير والشر سبحانه وتعالى، ويدل على التهلك بالجزع، وضعف التماسك وقوة الهلع، باستيلاء القنوط و الإياس، وأن يشفع الشكوى بذكر الثقة باهله سبحانه والتسليم إليه، و الرضا بأحكامه، وتوقع الفرج من عنده، وتلقي اختباره بالصبر، كما تلقى نعمه بالشكر، ونحو هذا مما يليق به ويجرى مجاره . قال: وقد يكتب ألتباع للرؤساء رقاعا بشكاية الأحوال ومساءلة النظر؛ ثم ذكر أن سبيل هذه الرقاع أن يعدل بها عن التصريح بالشكوى إلى لفظ الشكر .

إن هذه الأنواع من الكتابة تتطلب ثقافة واسعة ومعرفة جيدة وبدقائق اللغة وفنون البلاغة والبديع، واجادة الخط وقواعد الاملاء، وقد ألفت كتب خاصة لهذه الصنعة لتوضع بين أيدي الكتاب يرجعون اليها عند الحاجة، وأغلب الكتب الديوانية تنجح الى التأنق والتصنع، واستخدام السجع بكثرة، وكذلك سائر الفنون البديعية والمحسنات اللفظية، والاستعانة بمصطلحات العلوم المختلفة كالفقه والتفسير واللغة والنحو.

وعني سلاطين مصر والشام بالكتابة الديوانية، واستخدموا الى جانب صاحب ديوان الانشاء منصب (كاتب السر)، أو رئيس الديوان السلطاني ولكي نقف على أساس كتابتهم نأخذ جزءاً من رسالة محيي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ) التي كتبها على لسان السلطان قلاوون الى السلطان أحمد غازان سلطان التتر، رداً على رسالة منه في طلب الهدنة والسلام، بعد اعتناقه الإسلام :

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة الله تعالى، باقبال دولة السلطان الملك المنصور قلاوون الى السلطان أحمد.

أما بعد حمد الله الذي أوضع بنا ولنا للحق منهاجاً، أوجد بنا فجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفوجاً، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد، الذي فضله الله على كل نبي، نجى به أمته، وعلى كل نبي ناجى، صلاة نذير ما دجا، وتنير من داجي.

فقد وصل الكتاب الكريم، المتلقي بالتكريم، المشتمل على النبأ العظيم، من دخوله في الدين وخروجه عن خلف من العشيرة والأقربين.

ولما فتح هذا الكتاب فتح بهذا الخبر للمعلم المعلم، والحديث الذي صحح عند أهل الإسلام إسلامه، وأصح الحديث ما روي عن مسلم، وتوجهت الوجوه الى الله سبحانه في أن يثبته على ذلك بالقول الثابت، وان ينبت حب هذا الدين في قلبه، كما أنبت أحسن النبت من أخشن المنابت.

وحصل التأمل للفصل المبتدأ بذكره من حديث اخلاصه النية في أول العمر و عنفوان الصبا الى الاقرار بالوحدانية، ودخوله في الملة المحمدية، بالقول والعمل والنية، فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام، وألهمه شريف هذه الالهام، كحمدنا لله على أن جعلنا من السابقين الأولين الى هذا المقال والمقام، وثبت أقدامنا في كل موقف اجتهاد، وجهاد تنزلزل دونه الأقدام).

لقد كانت الرسائل الديوانية ذات أهمية تاريخية، فهي تسجل لنا بدقة ووضوح الحالة النفسية والسياسية والاجتماعية والحربية والاخلاقية التي كان الناس آنذاك يتقلبون فيها ويعيشون في أكنافها، يقول الدكتور شوقي ضيف: (ويظن كثيرون أن النثر جمد في هذا العصر جموداً شديداً لما ساد في بعض جوانبه من تكلف في تحرير معانيه، ومن سجع مثقل بأصداف البديع، وخاصة في الرسائل الاخوانية، كل ذلك لم يحل بين كتاب الدواوين وبين التعبير عن واقع الحياة السياسية تعبيراً كانوا فيه السنة ناطقة عن أهل مصر والشام، وعن أهوائهم السياسية ومطامحهم الحربية).

شروط الرسالة :

- ١-البساطة: أي أن تكون الرسالة خالية من التكلف، بعيدة عن الزخرف.
- ٢-البيان: أي أن تكون عبارات الرسالة واضحة ليس فيها غموض أو إبهام.
- ٣- الإيجاز: أي عدم الإسراف في القول ، أو الإسهاب فيه ، لأن إطالة الرسالة قد يخرج بها عن الغرض الذي وضعت من أجله .
- ٤- الملاءمة: وتعني مراعاة منزلة المرسل إليه ، وعلاقته بالمرسل ، بحيث يكون أسلوب الرسالة ملائماً لمكانة المرسل إليه ودرجة معرفته.
- ٥-جودة التعبير: وذلك بأن يكون الأسلوب مشرقاً لتنزل الرسالة منزلتها الحسنة في نفس المرسل إليه .